حصان تورينو
(ماذا لو استطاع الحيوان أن يتكلم؟!)
The Turin Horse
What Would Happen If Animals Could Talk?

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.23231.59047

مقال منشور بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة، بتاريخ ١٠ أغسطس ٢٠٢٢
With Mind We Start, 2022, August 10.

«تورينو» Turin واحدة من أهم المُدن الأوربية تاريخًا وحضارة. تقع في شمال غرب إيطاليا، وتحديدًا على الضفة الغربية لنهر «بو» Po، وهي أول عاصمة لإيطاليا الموحدة في الفترة من سنة ١٨٦١ إلى سنة ١٨٦٥. تبلغ مساحتها ١٣٠,١٧ كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٩٠٠ ألف نسمة، ومع ضواحيها يبلغ العدد حوالي مليون ونصف نسمة.

تشتهر المدينة اليوم بالقهوة ذات المذاق الخاص، وشوكولاتة البندق اللذيذة، وسيارات فيات Fiat، ونادي يوفنتوس لكرة القدم Juventus FC، ومول أنطونيليانا Mole Antonelliana، وكذلك بالعجائب المعمارية والمتاحف والمطاعم والقصور ودور الأوبرا والحدائق والمسارح والمكتبات وغيرها. وبالإضافة إلى ما سبق، تُمثل المدينة لحظة تاريخية فارقة في حياة الفيلسوف الألماني متعدد الاهتمامات «فريدريك نيتشه» Friedrich Nietzsche (١٨٤٤ – ١٩٠٠)؛ ففي الثالث من يناير سنة ١٨٨٩، خرج «نيتشه» من بيت مضيفيه في تورينو (وكان قد انتقل إليها سنة ١٨٨٨ بهدف العلاج)، ربما ليتنزه، وربما قاصدًا مكتب البريد لاستلام رسائله، وعلى بُعد خطوات من البيت إذا بمشهدٍ يوقفه ويُفجعه ويؤثر عليه فيما تبقى من حياته: سائق عربة يجلد حُصانًا بوحشية! انخرط «نيتشه» في نوبة بكاء شديدة، وألقى بنفسه على رقبة الحصان محاولاً حمايته

من الضـــربات، ثم كانت نوبات الانهيار العصـــبي التي كابدها في ســـنوات عمره الأخيرة، ثم الصـمت الذي أفضـى به إلى الموت! كان «نيتشـه» قبل موته يعزف على البيانو ويغني بهدوء لسـاعات متتالية، وشـوهد يرقص عاريًا في غرفته، كما شـوهد يُلقي بالنقود الممزقة في صـناديق القمامة!

تتأرجح هذه الحادثة بين الأســـطورة والحقيقة، فالرواية الوحيدة المكتوبة عنها هي تلك التي دونها صـحفي مجهول عن حوارٍ له مع السيد «فينو» Fino (مُضـيف «نيتشـه» في تورينو) سـنة ١٩٠٠، حيث أشار السيد «فينو» إلى أنه ذات يوم، بينما كان يسير في شارع «فيا بو» Via Po (أحد شوارع تورينو الرئيسة)، شاهد مجموعة من الأشخاص يلتفون حول اثنين من الحراس الذين اعتقلوا «البروفيسـور». لقد وجد الحُراس «نيتشـه» يحتضـن رقبة حصـان بقوة ويرفض تركه، قام السـيد «فينو» بسـرعة بتأمين إطلاق سـراح «نيتشـه» واصـطحابه إلى البيت! ومع ذلك، فإن التشـكيك في هذه الرواية لم يمنع المؤرخون والمخرجون وكتّاب السـير من إضـفاء أهمية بالغة عليها؛ ففي فيلم الدراما الفلسـفي المجري «حصـان تورينو» The Turin Horse (٢٠١١)، ومن قبله فيلم الدراما الرومانســي الأمريكي «كائن لا تُحتمل خفته» The Unbearable Lightness of Being (١٩٨٤)، تم تصوير هذه الحادثة كلحظة صدمة أصيلة وفارقة في قصة حياة «نيتشه»، إيذانا ببداية انحداره إلى الجنون الذي اسـتمر إحدى عشـرة سـنة حتى وفاته سـنة ١٩٠٠. وفي كتـابـه: «تورينو: الاقتراب من الحيوانـات» Turin: Approaching Animals (٢٠٢٢)، يـأخـذ الشاعر والروائي الاسترالي «ديفيد بروكس» David Brooks حادثة حصان تورينو كنقطة انطلاق عكسـية، إذ يكتب في الفصـل الافتتاحي قائلاً: «المُهم هو ما قاله نيتشـه للحصـان. أو ربما فعل القول ذاته: القول، ومن بعده الصـــمت»! وعلى العكس ممن نظروا إلى الحادثة كنوبة حُزن وتعاطف شديدين تجاه حيوانٍ أصم يُكابد وحشية البشر، أدت بـــ «نيتشه» إلى الغيبوبة والجنون، يتســـاءل «بروكس»: ألا يمكن قراءة هذه الحادثة على أنها تشـــير إلى بداية نوع من التعقل العميق؟! أما في القسم الأخير من الكتاب، والذي جاء تحت عنوان: «الحصان: لا تسل عما قاله نيتشه، بل عما قاله الحصـان لـــ نيتشه»، فيطرح فيه «بروكس» صيغة مماثلة لسؤال الفيلسوف النمسوي «لودفيج فتجنشتين» Ludwig Wittgenstein المشهور حول ما إذا كان بإمكاننا أن نفهم الأســد إذا تكلم بلغتنا، فيكتب قائلاً: لو كان بإمكان الحصـــان أن يتكلم بلغة البشـــر، فماذا كان يمكن أن يقول لـ نيتشه؟

كـان «فتجنشـــتين» قد طرح الســـؤال في كتـابـه «مبـاحـث فلســـفيـة» Philosophical Investigations (١٩٥٣)، وذهب إلى أنه حتى لو تمكن الأسد بطريقة ما من التحدث بلغتنا، أو تم تطوير تطبيق للترجمة من لغة الأســد إلى لغة البشــر، فســوف يظل الأســد يكافح من أجل التعبير بوضوح عن وجهة نظره للإنسان، أو لكي يُخبرنا بقصة مقنعة! وأوضح «فتجنشتين» أن

هذا الانهيار المحتمل في التواصل إنما يرجع إلى أن الأسود ليس لها أية «حصة مشتركة يمكن تصورها في عالمنا». وبعبارة أخرى، ستكون منطوقات الأسد بلا معنى بالنسبة لنا، لأنها لن تستند إلى إحساس مشترك بالسياق، فالطريقة التي يفكر بها الأسد – إن كانت ثمة طريقة لديه للتفكير – مختلفة تمامًا عن طريقة تفكير البشر، أو في الواقع عن طرق تفكير الحيوانات الأخرى، لأنها قادمة من إطار مرجعي أو سياقٍ مختلف تمامًا عن السياق الإنساني!

على أية حال، وسواء أكان أو لم يكن بإمكان الأسد، أو الحُصان، أو أي حيوان آخر – لو استطاع أن يتكلم – أن يُخبرنا بشيء عن عالمه، فإن إنسانيتنا تُجبرنا على أن نفكر في الحيوانات ككائنات حية، يمكن أن تشعر، ويمكن أن تتألم، ويمكن أن تتكلم معنا عن عالمٍ مختلف لحياتها ووعيها ومداركها؛ تُجبرنا إنسانيتنا أن نتساءل: لماذا تتسم نظرتنا إلى رفقائنا على الأرض من غير البشر بنوعٍ من الدونية والازدراء في كثيرٍ من الأحيان؟ ولماذا فشلت الفلسفة عبر تاريخها في إيقاظنا من سُبات غرورنا البشري، وتهيئة فهم أخلاقي لغيرنا من الأنواع يتجاوز فقر الخيال وعمى تقاليد الفكر؟!

الحق أن الفلسفة الغربية لم تكن – تاريخيًا – مُهتمة كثيرًا بما يمكن أن نُسميه وعي الحيوان وحقوقه؛ إذ غالبًا ما وُضع البشر في منزلةٍ ما بين الآلهة من جهة، والحيوانات من جهة أخرى، مع التأكيد على قربنا من الآلهة نظرًا لتميزنا بالعقل. في اليونان القديمة، ذهب «أرسطو» Aristotle مثلاً إلى أن الحيوانات تفتقر إلى العقل، وإن كانت تتمتع بالإدراك الحسي، ومن ثم فهي في مرتبة طبيعية أقل من مرتبة البشر، ولذا يمكن استخدامها كموارد لتلبية احتياجات الناس. لكن «فيثاغورث» Pythagoras عارض هذه الرؤية الأرسطية، وحث على احترام الحيوانات معتقدًا أن الأرواح يمكن أن تتبادل أجساد البشر والحيوانات، وقد لا تكون هذه الأخيرة سوى بشرًا سابقين حلُّوا في أجسادٍ أخرى! كذلك الحال بالنسبة لتلميذ «أرسطو»: «ثيوفراستوس» Theophrastus، الذي كان يعتقد في قدرة الحيوانات على التفكير إلى درجة ما. وفي المقابل، اتفق معظم الفلاسفة وعلماء اللاهوت الغربيين اللاحقين مع أطروحة «أرسطو» في وجود الحيوانات بغرض استخدام البشر الذين يتميزون وحدهم بالعقل!

في العصر الحديث، عمد الفيلسوف الفرنسي «رينيه ديكارت» René Descartes إلى الحُكم بحرمان الحيوانات حتى من القدرة على الشعور بالألم، ومن ثم جواز سوء معاملتها وإجراء التجارب عليها؛ فوفقًا للمعتقد الديكارتي، لكي يشعر الكائن الحي بالألم، يجب أن يمتلك عقلاً، والحيوانات – حسب رأيه – لا عقل لها. وطالما هي كذلك فهي لا تشعر بالألم، وبالتالي فإن تشريح الحيوانات الحية لا يبدو إشكاليًا، ويمكن القيام به دون أدنى تعذيبٍ للضمير! اليوم لحسن الحظ، ثمة قلائل بين العلماء والفلاسفة ممن هم مستمرون في إنكار شعور الحيوانات بالألم، ورغم استمرار التجارب المنظمة على الحيوانات في كافة أنحاء العالم، بما في ذلك ممارسات

تشريح الأحياء، فإن ثمة لوائح قانونية (وإن كانت غير مكتملة) تعترف على الأقل بشكل صريح بأن الحيوانات لديها القدرة على الشعور بالألم والضيق!

على العكس من «ديكارت»، ذهب الفيلسوف البريطاني «جون لوك» John Locke إلى أن الحيوانات لديها كالبشر مشاعر، وأن القسوة غير المُبررة تجاهها خاطئة من المنظور الأخلاقي. وعلى الرغم من أن «لوك» لم يتحدث صراحةً عن حقوق الحيوان، إلا أنه شدَّد على أهمية منع الأطفال من تعذيب الحيوانات، وأكد على أن مثل هذه الممارسات الفجة تجاه الحيوانات تُرسخ لديهم سلوك القسوة حتى تجاه البشر!

من جانبه، لم يعتقد الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط» Immanuel Kant أن علينا كبشر أية واجبات أخلاقية مباشرة تجاه الحيوانات. لقد كان يعتقد أن السبب الوحيد الذي يجعلنا نتجنب القسوة مع الحيوانات هو أنه من خلال القيام بذلك قد نطور عادات قاسية نلحقها بالآخرين. ووفقًا لـ «كانط»، نحن مدينون فقط بواجبات أخلاقية تجاه الكائنات العاقلة، والحيوانات ليست مدرجة ضمن الكائنات العاقلة. ومع ذلك، فإن ثمة واجبات غير مباشرة تجاه الحيوانات بعدم ارتكاب ممارسات غير أخلاقية، أو نوع من القسوة تجاهها.

أما الفيلسوف الإنجليزي «جون ستيوارت مل» John Stuart Mill فقد أعلن صراحةً أن الحيوانات يمكن أن تشعر بالألم واللذة، وبالتالي فإن الأفعال التي تنطوي على التسبب في الألم يجب أن تكون مرفوضة أخلاقيًا! كذلك شدَّد رائد الفلسفة النفعية «جيرمي بنتام» Jeremy Bentham على أن مبدأ النفعية Utilitarianism يجب أن يشمل الحيوانات الحساسة، تلك التي تستشعر المتعة والألم بصورة لا تقل عن البشر، ولذا انتقد «بنثام» بشدة إلحاق الألم بالحيوانات بصورة روتينية بوصفه من قبيل الطغيان الإنساني!

وعلى الرغم من أن الميراث الفكري الغربي كان بصفة عامة أقل احترامًا للحيوانات من الميراث الفكري الشرقي، فإن الفكرة المعاصرة لحقوق الحيوان جاءت وليدة التطور في الفكر الغربي، حيث بدأت أول حركة مهمة لحقوق الحيوان في إنجلترا إبان القرن التاسع عشر، وكان هدفها منع استخدام الحيوانات في البحوث العلمية دون تخدير. وفي سنة ١٩٧٥ نشر الفيلسوف الأسترالي «بيتر سنجر» Peter Singer كتابه المؤثر «تحرير الحيوان: أخلاقيات جديدة لمعاملتنا للحيوانات» Animal Liberation: A New Ethics for Our Treatment of Animals، ليغدو بمثابة بيانٍ فلسفي تأسيسي لحركة تحرير الحيوان Animal Liberation Movement. وفي سنة ١٩٧٦ نشر أستاذ علم الحيوان الأمريكي «دونالد ريدفيلد جريفين» Donald Redfield Griffin كتابه «حول مسألة وعي الحيوان» Question of Animal Awareness، وهو الكتاب الذي عُد بمثابة علامة على ميلاد حركة علمية جديد مؤثرة، ألا وهي تلك التي يمثلها علم سلوك الحيوان الإدراكي، الذي يتناول سلوك الحيوان في سياق تمتعه بالوعي والرغبات والمشاعر.

أخيرًا، ورغم تشاؤمية التوقعات فيما يتعلق بالحد من استخدام الحيوانات في التجارب أو أخذ حقوقها ككائنات واعية مأخذًا جادًا، لاسيما في ظل خضوع البشر أنفسهم للتجارب من قبل بعض الحكومات، إلا أن ثمة رؤى متصاعدة نحو إيجاد قواسم حياتية مشتركة لكل من البشر والحيوانات في المستقبل، وهي رؤى تكتسب زخمًا جماهيريًا لدى كافة الشعوب المتحضرة. ربما لو استطاعت الحيوانات أن تتكلم لرددت مقولة الروائي البرتغالي «جوزيه ساراماغو» José Saramago، وأخبرتنا أن القسوة اختراع بشري، وأن الحيوانات لا تُعذب بعضها البعض، البشر فقط يفعلون ذلك، هم الكائنات العاقلة، والقاسية، الوحيدة على هذا الكوكب!

***

- **توثيق المقال بنظام APA:**

عثمان، صلاح (١٠ أغسطس ٢٠٢٢). «حصان تورينو: ماذا لو استطاع الحيوان أن يتكلم». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٢٢ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/حصان-تورينو/

APA Citation:

Osman, S. (عثمان، ص) (2022, August 12). The Turin Horse: What Would Happen If Animals Could Talk? (عالم ما بعد الحقيقة). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/حصان-تورينو/

***